الصابئة او المندائية

بقلم الاب الفاضل والباحث المدقق انستاس الكرملي البغدادي

(تابع لما جاء في المشرق ٣ : ٧٧٧)

والكاتب الاديب كان في المقالة السابقة وصف الطور الثالث لتقلب الشيعة الصابئة ودخول الآراء الفلسفية فيها. فاستتلي كلامهُ بقولهِ:

ألا ان هذه الفِرَق وان تعدَّدت شُعَبها وشعابها واختلفت اسماؤها والقابها فانها ترجع الى اربع فِرَق كبرى. وقد رأيتُ افضل متكلمي الاشعريين سيف الدين ابا الحسن عليّ بن ابي علي الآمدي قد احسن تمييز هذه الفرق الاربع وفاق سائر كتبة العرب ومؤرخيهم في وصفها وإنعام النظر في تدقيق البحث عنها وذلك في كتابهِ الجليل المترجم « بكتاب ابكار الافكار » وهو غير مطبوع الى يومنا هذا وعزيز الوجود. ولهذا أُورد كلامهُ هنا بتمامهِ اولًا اثباتًا لدرر كلامهِ ومعرفة مقالهِ وثانيًا إقرارًا بفضلهِ وعلوّ مكان كمالهِ. قال ولله درُّهُ من قائل:

« الفرقة الاولى: « اصحاب الرُوحانيات » وقد يقال ذلك بالرفع (١ أخذًا من الرُوح وهو جوهرٌ. وقد يُقال بالنصب (٢ وهو حالة خاصة بهِ. وقد زعم هؤلاء ان اصل وجود العالم يتقدس عن سمات الحدَث (٣ وهو اجلّ واعلى من ان يُتوصَّل الى جلالهِ بالعبودية لهُ والخدمة من السفليَّات وذوات الانفس المتغسة في عالم الوذائل والشهوات. وانما يُتقرَّب اليهِ بالمتوسطات بينهُ وبين السفليَّات وهي امور روحانيَّة مقدسة عن الموادّ الجرمانيَّة (٤ والقوى الجسمانية. والحركات المكانيَّة. والتغيّرات الزمانيَّة. في جوار ربّ العالمين. مجبولون على تقديسهِ وتمجيدهِ وتعظيمهِ دائمًا وسرمدًا. قالوا: وهم إلهتنا واربابنا ووسائلنا (٥ الى حاجاتنا. وبهم يُتقرَّب الى الله تعالى. وهي المديرة للكواكب الفلكيَّة. والمدبّرة لها على التناسب المخصوص بحيث يتبعها انفعالات في العناصر السفليَّة وحركات بعضها الى بعض وانفعال بعضها عن بعض عند الاختلاط والامتزاج المُفضي الى التركُّب الموجب لتنوُّع المركَّبات الى أنواع المعادن والنبات

١) اي بضمّ الراء (رُوحانيَّات)
٢) أي بفتح الراء (رَوْحانيَّات)
٣) قلتُ: وفي نسخة الحدثان
٤) قلتُ: الجرمانية نسبةً الى الجرم
٥) وفي نسخة: ووسائطنا بواو عوض الراء

والحيوانات وتصريف موجودات الاعيان من حالٍ الى حال ومن شانٍ الى شان الى غير ذلك من الآثار العلوية والسفلية. وزعموا انَّ الكواكب الفلكية هي هياكل هذه الروحانيات (les éons) وان نسبة الروحانيَّات اليها في التقدير (١ لها والتكوين نسبة الأنفس الانسانيَّة الى ابدانها. وانَّ لكل روحاني هيكلًا يخصُّهُ. ولكل هيكلٍ فلكًا يكون فيهِ. وزعموا ان المعرَّف لهم غارميون (٢ وهرمس اللذان هما اصل علم الهيئة وصناعة التنجامة. وهرمس (٣ هو اوَّل من قسَّم البروج ووضع اسماءها واسماء الكواكب السيَّارة ورتَّبها في بيوتها وبيَّن الشرف والوبال والاوج والحضيض والمناظر والتثليث والتسديس والتربيع والمقابلة والمقارنة والرجوع والاستقامة والميل والتعديل واستدلَّ باستخراج اكثر الكواكب واحوالها وقيل ان غارميون هو شيث وهرمس هو ادريس عم (٤

« الفرقة الثانية : « اصحاب الهياكل » فانهم قالوا اذا كان لا بدَّ للانسان من متوسِّط فلا بُدَّ من ان يكون ذلك المتوسِّط ممَّا نشاهدهُ ونراهُ حتى نتقرَّب اليهِ. والروحانيَّات ليست كذلك فلا بدَّ من متوسِّط بينها وبين الانسان. وأقرب ما اليها هياكلها فهي الآلهة والارباب المعبودة والله تعالى رب الارباب واليها التوسّل والتقرّب. فان التقرُّب اليها تقرُّبٌ الى الروحانيَّات التي هي كالارواح بالنسبة اليها. ولا جرم انهم دعوا الى عبادة الكواكب السبعة السيَّارة ثم اخذوا في تعريفها وتعريف احوالها بالنسبة الى طبائعها وبيوتها ومنازلها ومطالعها ومغاربها واتصالاتها ونسبتها الى الاماكن والازمان والليالي والساعات وما دونها الى غير ذلك. ثمَّ تقرَّبوا الى كل هيكل وسألوهُ بما يناسبهُ من الدعوات فيما يناسبهُ من الاماكن والازمان واللباس الخاصّ بهِ والتختُّم بالخاتم المطبوع على صورتهِ. والهياكل عندهم احياء ناطقة بحياة الروحانيَّات التي هي ارواحها ومتصرِّفة

---

١) وفي نسخة : في التدبير

٢) وفي نسخة آخرة : عادميون . بين في الاول عوضًا عن النون المعجمة وبدالٍ عوضًا عن الراء . والاصح ان يقال اغاثاذيمون. كما جاء في تاريخ الدول لابن العبري في الصفحة ١٢ من الطبعة الصالحانيَّة . وقد جاءت هذه الكلمة هكذا : ناذيمون بذالٍ معجمة في طبعة كتاب الملل والنحل للشهرستاني المطبوع على الحجر بالمطبعة الثانية ص ١٥٢ وفي طبعة لندن ص ٢٠٢ . اما اليوم فيسمّي الصابئة ذَيْمُون او دَيانا ( ) ٣) ويسمي الصابئة الحاليون : هرمز ( )

٤) قلتُ : ومذهب صابئة العراق في يومنا هذا هو مذهب هذه الفرقة بعينهِ لا ينقص منهُ ذرَّة ولا يخالفهُ بشيء . ولو كان زهيدًا

فيها . ومنهم من جعل هيكل الشمس ربّ الهياكل والارباب . وهذه الهياكل هي المدبرة لكل مـا في عالم الكون والفساد على ما سلف ذكرهُ في تعريف مذهب الفريق الاول . وربّما احتجّوا على وجود هذه المدبّرات وانها احياء ناطقة بان حدوث الحوادث امّا ان يكون مستندًا الى حادثٍ او قديم . ولا جائز ان يكون مستندًا الى حادث اذ الكلام فيه كالكلام في الاول والتسلسل والدَّور مُحالان فلم يبقَ الّا ان يكون مستندًا الى ما هو في نفسهِ قديم . وذلك القديم امّا ان يكون موجبًا بذاتهِ او بالاختيار . فان كان الاول فامّا ان يكون كل ما لا بدّ منهُ في ايجاد الحوادث متحقّقًا معهُ او انهُ متوقف على تجدّد . فان كان الاوّل فيلزم قِدَم المعلول والقـدم علّتهُ وشرطهُ وهو محال . وان كان الثاني فالكلام في تجدّد ذلك الامر كالكلام في الاول وهو تسلسلٌ . فلم يبقَ الّا ان يكون فاعلًا مختارًا وليس في عالم الكون والفساد فاعل قديم مختار الّا الافلاك والكواكب ولذلك حكموا بكونها احياء ناطقة

« الفرقة الثالثة : » « اصحاب الاشخاص » هؤلاء زعموا انهُ اذا كان لا بدّ من متوسط مرئيّ فالكواكب وان كانت مرئيّة الّا انهـا قد تُرى في وقتٍ دون وقت لطلوعها وافولها وظهورها وصفائها نهارًا . فدعت الحاجة الى وجود اشخاص مشاهدة تُنصب اعيننا تكون لنا وسيلة الى الهياكل التي هي وسيلة الى الروحانيّات التي هي وسيلة الى الله تعالى . فاتخـذوا لذلك اصنامًا مصوّرةً على صور الهياكل السبعة كل صنم من جسم مشارك في طبيعتهِ لطبيعة ذلك الكوكب ودعوهُ وسألوهُ بما يناسب ذلك الكوكب في الوقت والمكان واللبس والتختّم بما يناسبهُ والتخيّر المناسب لهُ على حسب ما يفعلهُ ارباب الهياكل الّا انها هي المعبودة على الحقيقة . وهذا هو الأشبه بسبب اتخاذ الاصنام . ويُحتمل ان يكون اتخاذ الاصنام بالنسبة الى غير هذه الفرقة وتعظيمها لاتخاذها قِبلةً لعباداتهم . او لانها على صورة بعض من كان يُعتقَد فيهِ النبوّة والولاية تعظيمًا لهُ . او لان قدماء ارباب الهياكل والاصنام وعلماءهم ركّبوا طلاسم ووضعوها فيها وامروهم بتعظيمها لتبقى محفوظةً بها . والّا فاعتقاد الالهيّة فيما اتخذوا صورًا من الاخشاب والاحجار وكونهُ خالقًا لمن صوّرهُ ومبدعًا لما وجودهُ قبـل وجودهِ من العالم العلوي والسفلي ممّا لا يستجيزهُ عقل عاقل . بل البداهة شاهدة بردّه وابطاله وان وقع ذلك معتقد البعض الرقاع (كذا) ومن لا خلاق لهُ من العوامّ منهم فلا يُلتفت اليهِ ولا معوّل عليهِ

« الفرقة الرابعة : « الحلوليّة »(١ وهؤلاء زعموا انّ الإله المعبود واحد في ذاتهِ وانهُ ابدع أجرام الافلاك وما فيها من الكواكب . وجعل الكواكب مدبّرًا لما في العالم السفلي . فالكواكب آباء أحياء ناطقة والعناصر أمهات . وما تؤديهِ الآباء من الآثار الى الامهات تقبلها بارحامها فتحصل من ذلك المواليد وهي المركّبات . والإله تعالى يظهر في الكواكب السبعة ويتشخّص باشخاصها من غير تعدّد في ذاتهِ وقد يظهر ايضًا في الاشخاص الارضيّة الخيّرة الفاضلة . وهي ما كان من المواليد وقد يتركّب من صفو العناصر دون كدرها . واختصّ بالمزاج القابل الظهور الرب تعالى فيهِ اما ذاتهُ واما صفة من صفات ذاتهِ على قدر استعداد مزاج ذلك الشخص . وزعموا انّ الله يتعالى عن خلق الشرور والقبائح والاشياء الخسيسة الدنيّة كالحشرات الارضيّة ونحوها بل هي واقعة ضرورة اتصالات الكواكب سعادةً ونحوسةً واجتماعات العناصر صفوةً وكدورةً . وزعموا ايضًا انهُ على رأس ستة وثلاثين الف سنة واربعمائة وخمس وعشرين سنة يحدث روحاني على رأس الدور الآخر وكذا الى ما لا يتناهى . وان الثواب والعقاب على افعال الخير والشرّ كل دور واقع لكن في الدور الذي بعدهُ في هذه الدار لا في غيرها

والصابئة على اختلافهم في المبادئ متفقون على وجوب ثلاث صلوات لهم والاغتسال من الجنابة ومسّ الميت وعلى تحريم لحم الخنزير والكلب والجزور وما لهُ مخلبٌ من الطير والسكر . واموا بالنكاح بوليّ وشهود ونهوا عن الجمع بين امرأتين (٢ وعن الطلاق الّا بحكم حاكم شرعيّ . الى كثير من الاحكام المشروعة في شرعنا هذا » اه كلام سيف الدين الآمدي

وقد ذكر ابن خلدون هذه الفِرَق بعبارةٍ اخرى قال :

« ان الصابئة هم القائلون بالهياكل والارباب السماوية والاصنام الارضيّة وانكار النبوات وهم اصناف وبينهم وبين الحنفاء مناظرات وحروب مهلكة . وتولّدت من مذاهبهم الحكمة الملطيّة . ومنهم أصحاب الروحانيّات وهم عبّاد الكواكب واصنامهم التي عُملت على تمثالها . اما الحنفاء فهم

١) كذا في النسخة التي بيدي . وسماها ابن بطوطة بالحرّانيّة . وهو عندي اصحّ . وسماها الشهرستاني الحرّيانيّة وهو تصحيف ظاهر مرغوب عنهُ . وزاد قائلًا : والحرّيانية ينسبون مقالتهم الى عاديمون وهرمس وأغاثا (كذا والاصح طي ما علمهُ من كتبهم الحالية أغاثا ديمون) واواذى (كذا والاصح اواثر) اربعة من الانبياء

٢) قلت هذا غير صحيح

القائلون بانَّ الروحانيات منها ما وجودها بالقوَّة ومنها ما وجودها بالفعل. فما هو بالقوَّة يحتاج الى ما يوجده بالفعل ويقرُّون بنبوة ابرهيم وانهُ منهم وهم طوائف منها: الكاظمة اصحاب كاظم بن تارح. ومن قولهِ ان الحق بين شريعة ادريس وشريعة نوح وشريعة ابرهيم. ومنها: اليدانية اصحاب بيدان الاصغر. ومن قولهِ اعتقاد نبوة من يفهم عالم الروح وان النبوة من امرار الالهية. ومنها: القنطارية اصحاب قنطار (والاصح قينانية اصحاب قينان) بن ارفكشاد ويقرّ بنبوة نوح. ومنها: اصحاب الهياكل ويرون الشمس إله كلّ اله. والمرّانية. ومن قولهم: المعبود واحدٌ بالذات وكثير بالاشخاص في رأي العيان وهي المدبّرات السبع من الكواكب والاشخاص الارضية المنيرة العالمة الفاضلة » اه

وبين اسماء هذه الفرق واسماء الفرق التي ذكرها سيف الدين الآمدي بونٌ بعيد بيّن غير ان الفرق التي ذكرها هذا العلامة الاخير هي اصحّ لانها تنطبق على حقائق راهنة ومذاهب ذكرها اغلب المؤرخين والعلماء.

طور ادخال آراء نصرانيَّة فيها او الطور الاخير

بقي الصابئة دهرًا طويلًا ذاهبين مذاهب الفلاسفة العظام. خابطين فيها ولا خبط عشواء في حالك الظلام. حتى انتضى فضل الصباح الانجيلي. وبرز جبين الصباح الجليلي. بعد ان سبقتهُ تباشيرهُ بقليل من الزمان. بشخص الوليّ الاعظم يوحنّا المعمدان. الذي نفذت كلمتهُ في القوم. اذ لم يُرَ مثلهُ الى ذلك اليوم. لا بل وان السيد المسيح. طلب منهُ العماد بكلام جلي فصيح. فرأى البعض في ذلك علوَّ منزلة الحضور. فوق منزلة المسيح الطاهر الطهور. وقد حاول الصابغ مراتٍ كثيرة. صدّ تلامذتهِ عن هذه الاوهام الكبيرة. فكأنهُ كان يضرب في حديد بارد. او يُوردهم شرَّ الموارد. فلجأ الى وسيلة ظنَّ انها تكون الضربة القاضية. وانها تفعل فيهم فعل السيوف الماضية. وذلك انهُ « ارسل اثنين من تلامذتهِ يقولون لهُ: أأنت الآتي ام ننتظر آخر » (متى ١١: ٣) وكما اننا نعلم العلم اليقين ان يوحنا لم يشكّ ساعةً بالوهيَّة المسيح وبمهمّتهِ لفداء العالم. لم تكن اذن الغاية من هذا الاستفسار والاستخبار الّا تهذيب عقول تلامذتهِ الذين لم تنجع فيهم اساليب الكلام فأراد بهذه الواسطة ان يُري لبعض من تلامذتهِ الشاكّين المرتابين ان اعمال المسيح التي يراها الشاهدان رأي العيان انما هي آيٌ لا يأتيها الّا من كان نبيًّا عظيم الشأن او إلهًا حقيقيًّا لهُ مل. السلطان. على عناصر الارض والاكوان. واننا لا نشك في ان كثيرين من هؤلاء التلامذة المتتلمذين ليوحنّا المعمدان بقوا على عماهم وران على قلوبهم ما كانوا يكسبون وانضمّوا بعد ذلك الى بعض المتشدّقين

المتفلسفين الذين أرادوا ان يجمعوا بين مخترعات ومبتدعات مخيلتهم وبين التعاليم الصحيحة وانتحلوا لهم اسم « مَنداني دَيهي » اي تبعة يحيى

وذلك انهُ لمَّا صعد المسيح الى السماء واخذ رسلهُ يبشرون بالانجيل قام وقتئذٍ واحد ممَّن آمن بابن الله واعتمد على ايدي الرسل واسمهُ سيمون ينشر وباء تعاليم فاسدة لان الحواريين لم يعطوهُ ذلك الذي ينال بهِ الانسان حلول الروح القدس على من توضع عليهِ ايدي المزوَّد بتلك القوَّة (راجع اعمال الرسل في الفصل الثامن) وكان من امرهِ انهُ فيما بعد ذلك غدا رأساً للشيعة المشؤومة التي سُمِّيت بعد زمان باسم « الأدرية » (gnostiques). ثم جاء بعدهُ من حذا حذوهُ واقتفى اثرهُ من مثل كَرْيكراس وباسيليد وفالنتين وساترنين الانطاكي ومَيْندَر السامري فطبَّقت مذاهبهم الشرق كلهُ واندفع وراءهم تلامذة يوحنَّا الضالون وادخلوا في معتقدهم شيئاً كثيرًا من آراء الأدريين واقوالهم الدينيَّة وسُننهم واحكامهم حتى أصبحوا ادريين حقيقيين لا غير كما تشهد بذلك كتبهم الدينيَّة الحاليَّة. وكما ينطق بهذه الحقيقة الراهنة معنى اسمهم الحقيقي باسانهم وهو « مَندايي » الذي معناهُ: « أدوثيون » كما سنثبتهُ في موضعهِ فيما يلي. وهو امر لم ينتبه اليهِ حتى الساعة علماء الافرنج وحكماء الشرق والكتبة عن الملل والنحل

وانما هؤلاء التلامذة وقعوا في مهواة هذه الغواة لان ذلك من نتيجة اصحاب الضلال فانهم يتشبَّثون بكل بدعة جديدة طلباً للحق الذي يشعرون بخلوهم منهُ فتتعدَّد بينهم الاقاويل وتكثر فيهم الاضاليل ولا يمكنهم التثبُّت في صراط واحد لانَّ مثل هذا هو من خواصّ الحقيقة التي لا تكون الَّا واحدة ثابتة غير متزعزعة. ولهذا قام بينهم مُصلحون كثيرون وائمَّة عديدون حتى ازدادت بعد ذلك تلك الفرق ولم يكن من الممكن حصرها اذ كل واحدة تدَّعي بالحقّ والحقّ بريء منها

هذا وكما ان في ديانة الادريين شيئاً كثيرًا من ديانة النصارى ظنَّ بعضهم انهم فرقة منهم حتى انهم سمَّوهم بنصارى يوحنا المعمدان (Chrétiens de S^t. Jean-Baptiste) لكن هذا خطأ وزلل لا بل خطَّأ جلَّ ركب متنهُ الافرنج ولم يقل بهِ احدٌ من ابناء الشرق الَّا باستنادهم على أقوال ابناء الغرب او نقلاً عنهم. وهذه التسمية لا تليق بهم ولا تحسن ولا هم ينتحلونها لنفسهم لانَّ « المسيحي » من آمن « بإلهيَّة المسيح لا بنبوتهِ » والحال ان المندائيين لا يؤمنون لا بلاهوتهِ ولا بنبوتهِ ان استقرينا ديانتهم

في كتبهم الدينيَّة . فكيف تجوز للبعض تسميتهم بالنصارى . اللهمَّ الَّا أن يُقال انَّما سمَّاهم البعض بالنصارى لان اصل الادريين من النصارى فيكون ذلك حينئذٍ من باب تسمية الشيء باسم ما كان عليهِ في اصلهِ . قلنا : ان هذا التأويل وان كان جائزًا وجاريًا في الكلم اللغويَّة الَّا انهُ لا يجوز في المصطلحات الدينيَّة اذ في مثل هذه الامور يجب التدقيق التـام والتحقيق الكامل . والَّا اختلط الحابل بالنابل . ولم يُعرف العاقل من الجاهل . والمتديِّن بدين الحقّ الصادع . من المتديِّن الكاذب المموِّه بالظواهر الخوادع

هذا ونقف عند هذا الحدّ من الاطوار العظام . وهو الطور الاخير الذي انتبت اليهِ الصابئة في أُخريات الأيام . وفي ما نوردهُ بعـد ذلك من الكلام . امور تثبت ما اسلفناهُ من تعريف هذه الفرق او هذه الاقسام . ومن الله التوفيق الى سواء سبيل المرام

(ستأتي البقيَّة)

وصف الصين للقلقشندي

نبذةٌ تولى نشرها الاب هنري لامنس اليسوعي

عثرنا في كتاب صبح الاعشى للقلقشندي على نبذة في وصف مملكة الصين فاحببنا اثباتها هنا بنسبة الحوادث التي تجري اليوم في الشرق الاقصى . وجلُّ ما يُستفاد من هذه النبذة انَّا تمرَّنا احوال الصين في بداية القرن الخامس عشر وقد ضمَّنها المؤلف خلاصة ما وجدهُ في بعض كتب البلدان التي اشتهرت في زمانهِ واخذت فسحًا منهـا يدُ الضياع . امَّا القلقشندي فقد سبق ذكرهُ في المشرق غير مرَّة (٣ : ٢١٠ و ٦ : ١٤) فلا حاجة للتكرار

مملكة القان (١ الاكبر

قال في التعريف (٢ : وهو اكبر الثلاثة يعني ملوك الاقسام الثلثة المتقدِّمة الذكر (٣

١) القان ملك التتار ويقال لهُ ايضًا الخان . وجاء في ابن العبري قان بالقاف هاربين

٢) هو كتاب « التعريف بالمصطلح الشريف » للقاضي شهاب الدين ابي العبَّاس احمد بن يحيى المعروف بابن فضل الله العمري الدمشقي مولدًا وهو كتاب واسع ضمَّنهُ مراسم الملك وما يتعلَّق بهِ . وفي المكتبة الخديوية (٦ : ١٣٩) منهُ نسخة . توفِّي مؤلفهُ في مصر سنة ٧٠٠ (١٣٠٠م)

٣) قسم القلقشنديّ مملكة تتران الى ثلاثة اقسام كما في كتاب التعريف يشمل القسم الاول غزنة وبخارى وماوراء النهر والقسم الثاني بلاد خوارزم والقبجاق والقسم الثالث الصين وانحطا ودعاه مملكة القان الاكبر